

تفسير البحر المحيط

@ 38 @ وتعالى يتعلق به على سبيل الأعمال إذ يصح لسبحان أن يتعلق به عن كما في قوله { سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ } والتعالي في حقه تعالى هو بالمكانة لا بالمكان . وقرأ الأخوان : عما تقولون بالتاء من فوق وباقي السبعة بالياء . وانتصب { عَلَاوًا } على أنه مصدر على غير الصدر أي تعالياً ووصف تكبيراً مبالغة في معنى البراءة والبعد عما وصفوه به لأن المناقاة بين الواجب لذاته والممكن لذاته ، وبين القديم والمحدث ، وبين الغني والمحتاج مناقاة لا تقبل الزيادة ، ونسبة التسبيح للسموات والأرض ومن فيهن من ملك وإنس وجن حملهم بعضهم على النطق بالتسبيح حقيقة ، وأن ما لا حياة فيه ولا نمو يحدث □ له نطقاً وهذا هو ظاهر اللفظ ، ولذلك جاء { وَلَا كُنْ لَآءٍ تَفْقَهُ هُونٌ تَسْبِيحَهُمْ } . وقال بعضهم : ما كان من نام حيوان وغيره يسبح حقيقة ، وبه قال عكرمة قال : الشجرة تسبح والأسطوانة لا تسبح . . .

وسئل الحسن عن الخوان أيسبح ؟ فقال : قد كان يسبح مرة يشير إلى أنه حين كان شجرة كان يسبح ، وحين صار خواناً مدهوناً صار جماداً لا يسبح . وقيل : التسبيح المنسوب لما لا يعقل مجاز ومعناه أنها تسبح بلسان الحال حيث يدل على الصانع وعلى قدرته وحكمته وكماله ، فكأنها تنطق بذلك وكأنها تنزه □ عما لا يجوز عليه من الشركاء وغيرها . ويكون قوله : { وَلَا كُنْ لَآءٍ تَفْقَهُ هُونٌ تَسْبِيحَهُمْ } خطاباً للمشركين ، وهم وإن كانوا معترفين بالخالق أنه □ لكنهم لما جعلوا معه آلهة لم ينظروا ولم يقرؤا لأن نتيجة النظر الصحيح والإقرار الثابت خلاف ما كانوا عليه ، فإذا لم يفقهوا التسبيح ولم يستوضحوا الدلالة على الخالق فيكون التسبيح المسند إلى السموات والأرض ومن فيهن على سبيل المجاز قدراً مشتركاً بين الجميع ، وإن كان يصدر التسبيح حقيقة ممن فيهن من ملك وإنس وجان ولا يحمل نسبته إلى السموات والأرض على المجاز ، ونسبته إلى الملائكة والثقلين على الحقيقة لئلا يكون جمعاً بين المجاز والحقيقة بلفظ واحد . . .

وقال ابن عطية ثم أعاد على السموات والأرض ضمير من يعقل لما أسند إليها فعل العاقل وهو التسبيح انتهى . ويعنى بالضمير في قوله { وَمَنْ فِيهِنَّ } وكأنه تخيل أن هن لا يكون إلا لمن يعقل من المؤنثات وليس كما تخيل بل هن يكون ضمير الجمع المؤنث مطلقاً . وقرأ النحويان وحمزة وحفص : تسبح بالتاء من فوق وباقي السبعة بالياء ، وفي بعض المصاحف سبحت له السموات بلفظ الماضي وتاء التأنيث وهي قراءة عبد □ والأعمش وطلحة بن مصرف . { إِنَّ زَنَّهُ كَأَنَّ حَلَائِمًا } حيث لا يعاجلكم بالعقوبة على سوء نظركم { غَفُورًا } إن رجعت

ووجدتم اﷻ تعالى . .

{ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ
بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا * وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ
يَفْقَهُوهُ وَفِئْدَانَهُمْ وَقُرْآنًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ
وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا } . .

نزلت { وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ } في أبي سفيان والنضر وأبي جهل وأم جميل امرأة
أبي لهب ، كانوا يؤذون الرسول إذا قرأ القرآن ، فحجب اﷻ أبصارهم إذا قرأ فكانوا يمرون
به ولا يرونه قاله الكلبي : وعن ابن عباس نزلت في امرأة أبي لهب ، دخلت منزل أبي بكر
وبيدها فهر والرسول صلى اﷻ عليه وسلم) عنده ، فقالت : هجاني صاحبك ، قال : ما هو
بشاعر ، قالت : قال { فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ } وما يدرية ما في جيدي ؟ فقال
لأبي بكر : (سلها هل ترى غيرك فإن ملكاً لم يزل يسترني عنها) فسألها فقالت : أتهزأ بي
ما أرى غيرك فانصرفت ولم تر الرسول صلى اﷻ عليه وسلم) . وقيل : نزلت في قوم